بسم الله الرحمن الرحيم

القيم والمصالح اساس العلاقات بين اتباع الديانات الابراهيمية

محمدعلي التسخيري
الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

لا شك أن هناك في العالم الاسلامي صحوة اسلامية شاملة وقد تجلت بشكل اكثر وضوحاً في منتصف القرن الماضي، وقد رأينا بعض مظاهرها والتي قد تكون ايضاً عناصر مساعدة على اتساعها وتعميق جذورها، متمثلة في قيام المؤسسات الشمولية في اواخر الستينات كرابطة العالم الاسلامي ومنظمة المؤتمر الاسلامي، ونجاح الثورة الاسلامية في ايران، وهزيمة الاتحاد السوفيتي في افغانستان، وانتشار المطالبة بتطبيق الاسلام في شتى انحاء العالم الاسلامي، وتنامي الشكوك تجاه نوايا الغرب تجاه العالم الاسلامي، وانتشار العادات والظواهر الاسلامية خصوصاً بين الشباب وامثال ذلك.

وقد دفع هذا التحول الكبير بعض الدول العظمى كاميركا لتغيير استراتيجياتها، وبعض المفكرين ليعيدوا النظر في تحليلاتهم الحضارية واسلوب التعامل بين الحضارات، كما دفع بعض ذوي النظريات المتطرفة الى العودة الى نظريات تقسيم العالم الى متحضر ومتوحش، وبالتالي تطبيق مبدأ قانون الغابة مع سكانها، وانه لا معنى للتعامل معهم وفق المبادئ الانسانية. وفي قبال ذلك طرحت نظريات في الجانب الاسلامي تراوحت بين التناقض الكامل بين الاسلام والغرب والانسجام بينهما ومحاولات التوفيق.

وقد انجزت اعمال تحقيقية لها قيمتها الدراسية في هذا المجال.(١)

وقد كانت المحاولات تنصب على عناصر مهمة في مجال تبيين سبب الظاهرة، وهي:

---

(١) من قبيل ما كتبه الكثير من الكتاب الاسلاميين كمحمد محمد حسين والعقاد، ومحمد حسنين هيكل، والمطهري، والسيد الصدر، والندوي، وكتاب غربيون مثل جون اسبيزيتو وب. بيسكاتوري، وفرانسوا بورجا، وجيل كيبيل ور. ديكميجيان، وشيرين هنتر، وابراهام برايان وغيرهم.

١ـ مسألة انقسام المجتمعات الاسلامية الى خطوط ثقافية ثورية او رجعية وصراع هذه الخطوط.

٢ـ مسألة سعي الغرب او الحكومات الموالية له الى تهميش العنصر الاسلامي والمظاهر الاسلامية.

٣ـ عمل المفكرين الاسلاميين على الاستفادة الجيدة من ظروف الانفتاح الانساني وحقوق الانسان لغرض اثارة الحماس في العالم الاسلامي.

وهم بذلك ينقسمون في مجال التعامل الاسلامي الغربي الى فريقين:

الأول: من يرون ان مجال التصالح بين الغرب والاسلام مغلق ونفقه مظلم، لأن السر يكمن في ان الاسلام نفسه يرفض الغرب قيمياً ولا يسمح مطلقاً بالتعايش او ما يسمونه بالانسجام مع الحداثة او التغريب. وتسميهم الكاتبة شيرين هانتر بالمستشرقين الجدد[1]، أما نحن فيمكن ان نسميهم بفلاسفة (اليأس الحضاري).

ومن هؤلاء مثلاً مارتن كرامر الذي ينعى على مخالفيه تساهلهم في الامر ويسميهم (الاعتذاريين) ويرى ان عملية الاحياء الاسلامي ستقضي على نفسها في نهاية القرن كما يرى أموس برلموتر في مجال العلاقة بين الاسلام والديمقراطية (أن المسألة ليست الديمقراطية بل الطبيعة الاصلية للاسلام[2]).

ولا نعدم في عالمنا الاسلامي من يصور العلاقة في ثنائية متنافرة تنافر الاسلام والجاهلية.

---

(١) مستقبل الاسلام والغرب صدام حضارات ام تعايش سلمي: ص ٩٦.
(٢) الواشنطن بوست، ١٩ يناير ١٩٩٢.

الثاني: يرى امكان التعايش نتيجة حيوية الاسلام وقدرة التجربة الاسلامية على التغير والتكيف، كما يرى ان الانبعاث الاسلامي ناتج لا من قدرات الاسلام الذاتية، بل من الحرمان الاقتصادي والسياسي والاستلاب الاجتماعي ايضاً وهذا ما يؤكد عليه فرانسوا بورغات كما يرى ايضاً بعداً ثقافياً لهذه الحركة كجهد للاستقلال الثقافي ويقول:

(نحن نشهد الوجه الثالث لعملية ازالة الاستعمار. فالوجه الاول كان سياسياً - كحركات الاستقلال، والثاني اقتصادياً كتأميم قناة السويس في مصر والنفط في الجزائر اما الوجه الأخير فهو ثقافي[1]). ويدعو هؤلاء الى سياسة التعامل بايجابية وتسميهم الكاتبة شيرين هانتر بالعالم ثالثيين[2]، واسميهم بـ (مفكري التوافق)، وهناك كثيرون من المفكرين الاسلاميين ينحون هذا المنحى.

وإذا كنت انعى على الاولين بعدهم عن فهم طبيعة الاسلام المرنة، وفهم حقيقة الصراع الطويل بين العالم الاسلامي والعالم الغربي بكل ما فيه من مد وجزر، فإني انكر على اتباع الاتجاه التوافقي الغربي اعتبارهم قيم الحضارة الغربية هي الاصل، ومدى قدرة الاسلام على الانسجام معها هو المعيار في حيوية الاسلام.

فهذا برايان في سلسلة مقالاته عن الموضوع في (الايكونوميست) اللندنية عام١٩٩٤ يبدو توافقياً داعياً الغرب الى شيء من الانحياز الى المعنويات وداعياً العالم الاسلامي الى الايمان بكل القيم الغربية معتبراً ان العالم الاسلامي يمر اليوم في قرنه الخامس عشر الهجري بنفس الحالة التي كان الغرب يمر بها

---

(١) Paris: Editions La Decouverte 1995), 107.

(٢) مصدر سابق ص ٩٨، من الترجمة العربية.

في قرنه الخامس عشر الميلادي، وكما كان الاسلام العامل الخارجي المؤثر آنذاك لحدوث النهضة فيجب ان يكون الغرب هو العامل الخارجي المؤثر في نهضة العالم الاسلامي اليوم.

واذا كان هانتگتن وفوكوياما و برناردلويس يختلفون في تحليلاتهم للصراع من حيث ماهو الواقع والاسلوب الامثل للمقابلة فانهم كغيرهم يتفقون على الهدف وهو انتصار الحضارة الغربية في النهاية، واعتبارها القمة في التمدن الانساني.

واذا اراد المفكر الغربي ان يلبس لبوس الواقعية فانه يحاول ان يدعو الغرب الى شيء من الاخلاقية الى جانب دعوته العالم الاسلامي للتنازل عن قيمة الاصيلة كلها تقريبا.

وهكذا نجد الكاتبة شيرين هانتر الغربية تدعو الغرب الى شيء من التدين وتدعو العالم الاسلامي الى العلمانية ليتم حل المشكلة[1].

وكأن الأمر يدور بين حالتين فإما ان يتنازل الاسلام عن قيمه ليرضى الطرفان: اليانسون والتوافقيون، او يوصف بأنه العدو الحضاري على طول المدى للغرب. ولنصور هذه الثنائية الحدية بشكل آخر، فإما أن يكون معيار الصراع القيم فلا تلاقي في البين، او يكون لمصلحة فهناك آفاق للتعاون والتعايش.

ولكي انتقل بالبحث من التعامل الاسلامي الغربي الى التعامل الاسلامي المسيحي واليهودي في حركة الواقع اليوم ـ وهناك من سحب الواقع الغربي على كل الساحة المسيحية ـ أبدي الملاحظتين التاليتين:

---

(١) مصدر سابق.

الملاحظة الأولى:

ان هناك خلطاً واضحاً احياناً بين الاسلام كمنظومة قيم والمسلمين كأمة تعتنق الاسلام، فالواقع التطبيقي للاسلام ولمسيرة الأمة لا يعكس في ظروف ليست قليلة حقيقة القيم الاسلامية في حركتها العملية، فلا يمكن مثلا اعتبار تصرف حاكم معين مثلا منطلقاً من الثقافة الاسلامية حتماً، خصوصاً وان الحكم الاسلامي ابتلي بفترات استبداد وبعد عن القيم يتبرأ منها المسلمون انفسهم، كما ان القيم الغربية والسلوك الغربي لا يعني بالضرورة رضاً مسيحياً عنه بل ان محاولات التخلص حتى من النفس المسيحي معروفة وهكذا قل عن التصرف السياسي الصهيوني فهو لايعبر بالضرورة عن التعاليم اليهودية الاصيلة والا كان علينا ان نبرر كل الفجائع التي ترتكبها اسرائيل اموراً يبررها هذا الدين وهو ما يخالف الواقع.

إلا اننا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا ان روح القيم الاسلامية هي التي تحرك التيار العام في العالم الاسلامي حتى لو افترضناه علمانياً، كما ان الروح المسيحية تفعل فعلها وتترك تأثيرها الجذري على مجمل الحياة الغربية وهكذا تترك اليهودية بصماتها بقوة في التصرفات الاسرائيلية . ولكن هذه الاديان اي (الاسلام والمسيحية واليهودية) تبقى مصونة عن اي انحراف في العالم الاسلامي والغربي وفي اسرائيل لا يمت الى قيمها بصلة.

ومن هنا نجد الفرق واضحاً في مجال النظرة او في مجال التعايش في الغرب عنهما في العالم الاسلامي حتى ان المرء لا يحس بكثير من الفوارق بين المسلم والارمني الايرانيين او القبطي والمسلم المصريين.

وبالتالي نقول ان الحوار الاسلامي المسيحي اليهودي له تأثيره القوي على العلاقة بين الحضارات.

الملاحظة الثانية:

اننا لا نجد انفسنا محصورين في الزاوية الضيقة فإما أن نترك الساحة للقيم المتناقضة فالصدام والصراع، او نلجأ الى المصلحة فتُسحق القيم ويتم التعايش - والمفروض ان التنازل عن القيم يعني الاغتراب عن الذات - . ان هذه المعادلة باطلة على صعيد العلاقة الاسلامية الغربية واكثر بطلاناً على صعيد العلاقة الاسلامية المسيحية- اليهودية.

فهناك الكثير الكثير من نقاط الاشتراك بين الاسلام والغرب يمكنهما ان يتفاهما عليها دون التنازل عن القيم. من امثال (حقوق الانسان، والديمقراطية، والسلام، والحرب ضد الارهاب، ومقاومة العنصرية والنازية والفاشية ودعم العدالة ورفض الاستبداد ونشر الحرية وغير ذلك).

وهناك المصالح المشتركة التي تزيد العلاقة قوة.

اما المساحات المشتركة بين الاسلام والمسيحية واليهودية ففيها اتساع ملحوظ.

. فهناك تراث قيمي مشترك لا يقدر بثمن فإن الملاحظ للنصوص الاسلامية يجد كماً كبيراً من النقل عن عيسى (ع) وامه الطاهرة وموسى(ع) نقلاً يوجه الحياة وينقيها. وكمثال على ذلك نجد الشيخ الكليني وقد توفي في اوائل القرن

العاشر الميلادي في كتابه المعروف (الكافي)[١] ينقل نص مناجاة الله (عز وجل) لعيسى كأروع ما يكون حيث يبدو كما يعبر محمود ايوب (عبداً متواضعاً لله، لكنه في الوقت عينه ولي مقرب عند الله) ثم يعقب فيقول:

(من خلال مفهوم التجلي الإلهي هذا تلتقي صورتا المسيح الاسلامية والمسيحية حول نقاط عدة: فالإسلام يؤكد ان في مقدور الانسان، بل من واجبه ان يتقرب الى الله والتقرب الى الله يتضح جلياً في معراج النبي محمد (ص) حيث وقف امام الله مباشرة وصعود المسيح ليجلس عن يمين الله) ورغم وجود بعض النقاش في هذا النص إلا أنه يكشف عن تلاحم بين التراثين[٢].

وهكذا اطنبت النصوص ذكر موسى(ع) وذكره القرآن الكريم في مواضع كثيرة فكانت قصته اكثر القصص[٣]

على ان هناك تلاقياً بين الاديان الابراهيمية في مجالات كثيرة منها:

- التركيز على عبادة الله ومحاربة الظلم والطغيان.
- الايمان بالفطرة الانسانية المبدعة.
- الايمان بمنظومة اخلاقية تكاد تكون واحدة.
- الايمان بحقوق الانسان.
- الايمان بقيمة التشكيل العائلي.
- الإيمان بضرورة التكافل الاجتماعي.

---

(١) روضة الكافي، الجزء الثامن، ونقله عنه ابن شعبه الحراني في آخر كتاب (تحف العقول) وتحدث عنه بالتفصيل البروفيسور محمود ايوب في كتابه (دراسات في العلاقات المسيحية الاسلامية) ج١، ص٦٤.
(٢) راجع كتابنا (نظرات في علوم القرآن) ص ٢٥٥ فما بعد.
(٣) وفي كتاب (المسيح في الاحاديث المشتركة) وقد اشرفنا عليه نصوص كثيرة تتحدث عن سيرته واوصافه ونبوته وشريعته وحوارييه وبني اسرائيل، وعلاقته بالامام المهدي(ع).

- الإيمان بضرورة احياء الذكريات المصيرية والاعياد التاريخية والدينية.
- الإيمان بقيمة الحياء والعفة الاجتماعية.
- الإيمان بالحياة الإلهية المسجدية او الكنسية.
- الإيمان بضرورة خدمة الحضارة الانسانية.
- الإيمان بمنظومة من العبادات والادعية والصلوات المزكية للنفس.
- الايمان بمنظومة من الاطعمة والأشربة المحللة
- الايمان بمنظومة من الطهارات والنجاسات

وغيرها كثير كثير.

وهناك مساهمات حضارية مشتركة. على ان المصلحة وهي في نفسها قيمة دينية تقتضي هذا التعايش؛

ان التعاون في الحرب ضد الفقر والمرض والجهل، والعمل لنفي التعصب، والانهيار الاخلاقي، واشباع الحاجات المعنوية ومقاومة المخططات الشيطانية لتقويض الكيان العائلي والتشكيك في القيم الدينية، ومقاومة الارهاب بشتى انواعه ومنه الارهاب الرسمي، ورفض ادعياء الدين الذين يخلقون الحروب لمصالحهم الشخصية والفئوية والحزبية ويتسترون بالدين، ورفض الاستكبار والحروب المدمرة والاعتداء على الآخرين وكذلك رفض اساليب القتل الجماعي بالاسلحة المدمرة الى ما هناك من مجالات وربما كان من اهمها محاربة المادية وملء الفراغ المعنوي والاخلاقي، وغيرها كلها مصالح تدعو الطرفين للتعاون البناء.

ولايفوتني في الختام ان انوه بكتاب صدر مؤخراً لاستاذ أمريكي هو ريتشارد بوليت بعنوان (دفاعا عن مقولة الحضارة الاسلامية المسيحية) طارحا هذه

المقولة في قبال مقولة (صدام الحضارات) مركزاً على المساهمات المشتركة بين الحضارتين في المسيرة البشرية العامة موضحاً ان الفارق الزمني بين بدئهما، والنزاعات المستمرة بينهما لايشكلان مانعاً من تلاحمهما الحضاري، وحتى فارق التطور المادي بينهما ما بين ١٦٠٠ – ١٩٠٠م يتعادل بتقدم العالم الاسلامي بشرياً بنسبة ٥٠٪ في قبال ٢٠٪ ليخلص الى النتيجة التالية فيقول:

«اما اذا نظرنا اليهما كوحدة واحدة ومن ضمن اطار تاريخي، فان العالم الاسلامي المسيحي لديه ما يجمعه اكثر مما يفرقه – فماضي الغرب ومستقبله لايمكن فهمهما بشكل كامل دون تقدير العلاقة التوأمية التي ربطته بالاسلام طوال اربعة عشر قرناً. والملاحظة نفسها تنطبق على العالم الاسلامي. ان مسألة الحضارة الاسلامية – المسيحية كمبدأ تنظيمي هو بالنسبة الى الفكر المعاصر مسألة متجذرة في الحقيقة التاريخية على مر هذه القرون. وقد يتمنى الواحد منا ان يرى مؤرخو الحضارة الغربية وحضارة الاسلام قيمة تعديل نظراتهم كي يأخذوا هذه الحقيقة بالحسبان... ان الحضارة الاسلامية المسيحية هي مفهوم نحتاجه بشدة اذا كنا سنحوّل يوماً تراجيدياً مشهوداً(١) الى لحظة تاريخية للاستيعاب والتكامل الاجتماعي والديني»(٢).

ويقول عنه الاستاذ محمود حداد مترجمه مايلي:

(ولم يتفق الجميع مع اطروحة هانتنغتن بل خرج كثير من المثقفين عن هذا الخط الفكري معلنين ضرورة حوار الديانات والحضارات وضرورة التعايش لا

(١) يقصد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.
(٢) الكتاب المذكور ص ٥٥ ـ ٥٦.

التقاتل في ما بينها الا ان الكتاب... يقول ان الاسلام والمسيحية شكل حضارة واحدة من الناحية الاجتماعية»[1].

والكتاب رغم بعض النقاط التي نخالفه فيها جدير بالمطالعة.

(١) ن.م ص ١٠.